رأي الآبلي (ت 1356م) و المقري(ت 1051هـ) في كثرة التآليف وبناء المدارس ببلاد المغرب من خلال كتاب نفح الطيب

د . فاطمة الزهراء مالكي(*)

ملخص

يعدُّ المقري وشيخه الآبلي من أعلام الحركة الفكرية في بلاد المغرب، ولأنَّ الآبلي كان شيخ المقري فقد سمعه يقول بأنَّ العلم أفسدَه بُنيان المدارس، والسبب في ذلك التوجه المذهبي للمدارس، ونقص بل وتوقف الرحلات العلمية مغربا ومشرقا ، إلى جانب أنَّ كثرة التأليف دون تمييز بين صحيح وضعيف، والخطأ في نسبة المُؤَلَّفِ لمُؤَلِّفِه، وكثرة الاختصارات الغامضة الناقصة المليئة بالأخطاء هو ما جعل الآبلي يصنفها مُفسدة للعلم، وهو ما جعل المقري أيضا يتبنى رأيه، لصواب كبير ، ولحالة العصر أنذاك .

الكلمات المفتاحية: التأليف، المدارس، بلاد المغرب، نفح الطيب .

---

*) محاضرة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الدكتور يحي فارس، **المدية** –الجزائر .

مقدمة

إنّ الحركة الفكريّة و العلميّة بالمغرب ليست وليدة الفترة المرينيّة أو الموحّديّة، بل تعود إلى فترة دخول الإسلام إلى المغرب مع الفاتحين الأوائل من العرب، و ما ظهر على الدّويلات ما هو إلا من آثارهم.

ومن أمثلة ذلك ما أرسله عمر بن عبد العزيز (99- 101هـ) إلى المغرب من علوم برزت نتائجها خاصّة في الجانب الدّيني و علومه، و قد برزت النّهضة العلميّة أكثر ما برزت في عهد الموحّدين و المرينيّين و الحفصيّين و الزّيانيّين[1].

والمتأمّل في آثار هذه النّهضة العلميّة و الفكريّة يُدرك أنّ المسلمين عاشوا نهضة علميّة كبرى، ونقصد بالآثار ما توفّر لدينا من مصادر كتابيّة من أمّهات الكتب والمخطوطات، والمصادر الأثريّة من بقايا المدارس القديمة، والمساجد، والأربطة[2] التي كانت تُستخدم كدور للعلم والعلماء، ومن أمثلة هؤلاء العلماء الآبلي، وعبد الرّحمن بن خلدون[3]، والمقّري و التّنسي وغيرهم كثير.

ومن الآثار العلمية أيضا ومظاهرها، بناء المدارس التي اجتهد الخلفاء في بنائها، وجلب العلماء إليها، والإغداق عليها بالمال الوفير والرّزق الكثير، كونها مكانا للعلم، وبِغَضِّ النّظر عن إيجابيّاتها و أهميتها، هناك من يرى لها سلبيات، فإنّ هناك من العلماء من يرى أنّ المدارس قد أفسدت العلم، وهو رأي الآبلي الذي نقله المقّري في كتابه" نفح الطّيب"[4]، ونفس الشّيء بالنّسبة لكثرة التّواليف، وباطلاعي على الرأي أردت أن يكون عنوان البحث: **رأي الآبلي(ت 1356م) و المقري (ت 1051هـ) في كثرة التآليف وبناء المدارس ببلاد المغرب من خلال كتاب نفح الطيب**.

أهمية الموضوع

إنَّ أهمية الموضوع مستمدة من أهمية المدرسة والمؤلفات نفسها ،دون أن ننسى أهمية المصدر نفسه ،فالفكرة التي أردت الحديث عنها هي فكرة من كتاب نفح الطيب ،الذي يعد مصدرا هاما ،ونفس الأمر بالنسبة للوثيقة التي تحوي الفكرة ، وإن كانت صغيرة فهي بحد ذاتها مصدر تاريخي ، وتعطينا صورة عن العصر أو الفترة التي كتبت فيها من جوانب عدة خاصة منها السياسية ، والعلمية ، والاجتماعية .

أسباب اختيار الموضوع

من أسباب اختياري للبحث في الموضوع استغرابي لفكرة كيف ينظر مفكر ومؤرخ للمدرسة[5] بسلبية- خاصة أنَّ من المسلم به أنَّ الناس ترسل أبناءها للتعلم في المدارس- وذلك من خلال اطلاعي على كتاب نفح الطيب ، الذي شد انتباهي فيه عدة أفكار .

وكانت لي رغبة شديدة وملحة في أن أبيِّن كيف من الممكن أن يكون لمكان علم إيجابيات وسلبيات ، وهذا هو المفروض منطقيا وعقليا ، بمعنى أنَّ الأمور المحيطة تؤثر في الأمور التي ظاهرها إيجابي فتحولها إلى ظاهرة سلبية بسلبيتها ، ما يعني محاولة إظهار السبب في تحول المدرسة إلى مفسدة للعلم من خلال محيطها ، إلى جانب أنني أريد أن أظهر أنَّ الرأي هو رأي الآبلي وتبناه المقري ، وربما تأثّر به أو مثل رأيه .

ومن الأسباب أيضا أنّني أردت اكتشاف سبب قول المقري ، ومن الذي تأثّر به في هذه الفكرة بالذات .

الإشكالية

بناءا على ماورد في كتاب نفح الطيب ، ماهي فكرة المقري حول المدارس ، وكيف كانت نظرته لها ، وإذا كانت أفكاره تبلورت من خلال الآبلي فما سببها؟ .

وانطلاقا من هذا الطرح العام طرحت الأسئلة الجزئية التالية :

- من هو المقري؟ وما محتوى كتابه نفح الطيب؟ .
- مامدى تأثره بالآبلي صاحب الفكرة؟ ، ومن هو الآبلي؟ .

-بناءا على رأي الآبلي الذي نقله المقري كيف تفسد كثرة التآليف العلم؟، و كيف يمكن للمدرسة أن تصبح مفسدة للعلم، وقد بنيت لطلبه؟ وهل فعلا تُعوض المدرسة الرحلة في طلب العلم؟.

خطة البحث: قسمت بحثي إلى مقدمة وعناصر وخاتمة.

في المقدمة بدأت بتقديم للموضوع، وأهمية البحث، وأسباب اختيار الموضوع، وإشكاليته.

وفي عناصر المباحث عرفت أولا بالمقري للتعريف به وبكتابه كوني نقلت الكلام منه، ثم عرفت بالآبلي لأنّه كان السبب في تكوين رأي المقري، ولأنّ المقري سمع شيخه يقول الكلام فدونه، ثم تطرقت إلى رأي المقري الذي أخذه عن الآبلي وناقشته لأصل في الأخير إلى خاتمة عبارة عن مجموعة من الاستنتاجات حول الموضوع.

أولا. التّعريف بالمقّري

هو أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرّحمن بن أبي العيش بن محمّد المقّري الملقّب بشهاب الدّين، ولد عام 986هـ/ 1577م، أصل أسرتهم من قرية تّدعى مقّرة من ناحية المسيلة[6]، انتقل جدّهم الأوّل إلى تلمسان[7] و استوطنها[8].

حفظ القرآن الكريم في صغره واعتكف على دراسة العلوم العربيّة، الدّينيّة، واللّغويّة، والأدبيّة، فدرس على عمّه أبي سعيد المقّري[9] صحيح البخاري، وكُتُب الحديث السّتّة المشهورة و غيرها، كما درس على علماء آخرين ذوي شهرة ومكانة[10].

بعد أن بلغ **أبو العبّاس المقّري** سنّ الرّشد تاقت نفسه لزيارة العواصم العلميّة، فرحل إلى فاس[11] عام 1009هـ/ 1600م، وهناك اِعتكف على الدّراسة والتّحصيل و مَتّنَ صِلاته بالشّيوخ والعلماء الذين كانوا يقومون بالتّدريس والتّعليم، ويبدوا أنّ نشاطه كان واسعا ممّا سمح له بأن يشتهر، فتعرّف على الفقيه إبراهيم بن محمّد الآسي، أحد قوّاد السّلطان أحمد المنصور الذّهبي، وأعجب به وبذكائه، ونباهته،

وصحبه معه إلى مدينة مُرّاكش[12] بعد حوالي عام، وقدّمه السّلطان و زكّاه و أشاد به[13].

وبمدينة مُرّاكش تعرّف **أحمد المقّري** على العالم التّمبكتي[14] المشهور **بأحمد بابا صاحب** كتاب "نيل الابتهاج" الذي كان في إقامته الجبريّة هناك بعد غزو السّلطان أحمد المنصور بلاده، كما تعرّف على عدد آخر من علماء مُرّاكش وأدبائها، واستفاد من علومهم و معارفهم، وتجاربهم، وكانت سفرته هذه إلى فاس ومُرّاكش سببا في تأليفه لكتاب " **روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مرّاكش وفاس**"، وذلك بعد أن سافر إلى فاس وأمّه بتلمسان عندما عاد إليها عام 1011هـ/ 1602م، وكان في نيّته أن يقدّمه إلى السّلطان أحمد المنصور، ولكن هذا السّلطان توفّي عام 1012هـ/ 1603م، قبل أن يعود هو إلى فاس[15].

هذا جانب من رحلته إلى فاس ومُرّاكش، وقد عاد مرّة أخرى عام 1013هـ/ 1604م، وتولّى بها الإمامة، والفتوى، والخطابة في جامعة القرويّين، وبعيشه في فاس والمغرب الأقصى فقد عايش أحداثا كثيرة[16].

وبينما كان يستعد للسّفر إلى دمشق[17] مَرِضَ و تُوُفّيَ في جمادى الثّانية عام 1051هـ/ يناير 1632م، فدُفِن في قرّافةِ المجاورين قُرْبَ الجامع الأزهر إلى جانب صفوة ممتازة من علماء الإسلام الذين ذهبوا إلى القاهرة[18] زائرين أو دارسين و رحّالة، ومدرّسين آخى بينهم العلم و وحّدتهم اللّغة والدّين الإسلامي.

من مؤلفاته الكثيرة :

1. روض الآس العاطرة الأنفاس في ذِكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مُرّاكش وفاس، ألّفه بين 1011 و 1012هـ/ 1602 و 1603م و قد تمّ طبعه.

2. أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض، ألّفه بفاس بين عاميّ 1013 و1014هـ/ 1604- 1605، تمّ طبعه أيضا.

3. إضاءة الدّجنة بعقائد أهل السّنّة، وهو عبارة عن نظم في العقيدة نظمه بالحجاز[19] ودرسه بالحرمين و أمّه بالقاهرة.

4. إتحاف المغرب المغري في شرح السنوسية الصغري[20].

5. إعمال الذّهن و الفكر في المسائل المتنوّعة الأجناس، و هو عبارة عن مسائل علميّة وجّهها إليه أستاذه محمّد بن أبي بكر الدّلاّئي.

6. حاشية على شرح أمّ البراهين للسّنوسي.

7. عرف النشق من أخبار دمشق.

8. شرح مقدّمة ابن خلدون ذكره حاجّي خليفة.

9. قطف المهتز في شرح المختصر على مختصر خليل.

10. فتح المُتعال في مدح النّعال.

11. مجموعة أراجيز شعريّة في أغراض متنوّعة، عددها سبعة عشر أرجوزة أشار إليها إحسان عبّاس في تحقيقه على نفح الطّيب.

12. نفح الطّيب من غصن الأندلس[21] الرّطيب و ذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب[22].

ثانيا. التعريف بكتاب نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب

طُبع كتاب نفح الطيب بمصر أوّل مرّة، حقّقه وأعاد نشره الدّكتور إحسان عبّاس خلال عقد السّبعينيّات، وقد شرع في الكتابة في القاهرة، رغم أنّه اختلف مع زوجته التي أنجبت له بنتا ولكنّها توفّيت عام 1038هـ/ 1628م، بعد أن طلّقها فزاد ذلك من همومه ومتاعبه، ومع ذلك واصل تأليفه للكتاب عن لسان الدّين بن الخطيب[23]، إذ طُلِبَ منه أن يُعرّف به في كتابٍ خاصٍ، فقال لهم أنّه شرع بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكتب منه نبذة تستحسنها من المحبّين الأسماع والقلوب، و سلك في ترتيبِهِ أحسنَ أسلوب و أنّه وضع فيه كلّ غريب من المشرق و المغرب[24].

ثمّ توقّف عن الكتابة لموت صديقه ثمّ عاد إليها، و اعتكف عدّة شهور بداية سما كِتَابه عن إبن الخطيب بـ " عرفُ الطّيب في التّعريف بالوزير إبن الخطيب"، تناول فيه حياته، و صِفاته، وثقافته، وأساتذته، وأسرته، ومآثره ... إلى غير ذلك، ثمّ توقّف عن الكتابة حتّى إختمر في ذهنه ما كتبه وعاد بعد ذلك إليه، ورأى أن يضيف إليه مقدّمة عن تاريخ الأندلس، فأحداثه السّياسيّة، وجغرافيّته، وسكّانه، والفتح الإسلامي له، وتاريخ المسلمين به، وعلماء المسلمين الأصليّين والوافدين عليه، والمهاجرين منه إلى البلدان الإسلاميّة خاصّة المشرق[25].

ولقد استغرقت كتابة هذه المقدّمة وقتا أطول من موضوع الكتاب نفسه، دام عاما وبضعة أشهر، و جاءت طويلة في حجمها كذلك حتّى أصبحت تمثّل نصف الكتاب، فأعطى

لها عنوانا ملائما للمقدّمة والموضوع ذاته وهو : " نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب"[26] ، إنتهى من نسخته الأولى في شهر رمضان 1039هـ/ 1630م[27] ، وعزم أن يحمله بنفسه إلى دمشق ليُطلع عليه أصدقاءه الذين اقترحوا عليه تأليفه[28] .

يعدّ هذا الكتاب موسوعة في تاريخ الأندلس ، و أسلوبه في هذا الكتاب غير مستقر على نمط معيّن ، فكثيرا ما يترك حادثة أساسيّة ليذهب إلى ذِكرِ أخرى ، ولا يضع الأشخاص على ترتيب معيّن ، و يمتاز بذكره للمصادر بالوضوح[29] .

ثالثا. التّعريف بإبراهيم العبدري التّلمساني الآبلي

هو أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم الآبلي ، وُلِدَ بمدينة تلمسان عام 681هـ/ 1282م ، وكان أبوه إبراهيم وعمّه أحمد قد هاجرا من قرية آبلة ببلاد الجوف شمال غرب مقاطعة مجريط[30] بالأندلس ، إلى مدينة تلمسان ، واشتغلا جنديين في جيش الأمير يغمراسن الزّياني ، وعمل إبراهيم قائدا لحامية **مرفأ هنين** شمال مدينة تلمسان ، وتزوّج من ابنة قاضي تلمسان أبي الحسن محمّد بن غلبون ، وأنجب منها ولدهُ محمّد المعروف بالآبلي[31] .

نشأ **محمّد الآبلي** في كفالة جدِّهِ القاضي ابن غلبون قاضي تلمسان الذي حبّب إليه العلم والعلماء ، فسمع من جده ، وأخذ عن فقهاء تلمسان ومنهم الشّيخ بن الحسين التّنسي ، والعالمان الشّهيران المعروفين **بابني الإمام**[32] ، ولقد أظهر منذ صغره تفوُّقًا في العلوم المنقولة و المعقولة ، خاصّة التّوحيد و الحساب و المنطق ، والرّياضيّات[33] .

وفي رباطٍ يُعْرفُ برباطِ العُبّاد تعرّف **الآبلي** على رجلٍ غريب من أهل كربلاء[34] بالعراق[35] ، وعندما عزم هذا الرّجل على العودة إلى بلاده رأى **محمّد الآبلي** الفرصة مناسبة له ليصاحبه إلى المشرق ليؤدّي فريضة الحجّ ، فاتّجَهَا من تونس[36] برًّا ثمّ ركِبَا بحرًا إلى الإسكندريّة[37] ، ومنها تعرّف إلى عدد من الشّيوخ والعلماء المشهورين ، ومنهم : تقيّ الدّين بن دقيق العيد ، **وابن الرّفعة** ، وصفيّ الدّين الهندي ، و التّبريزي ، و غيرهم ، و من مصر ذهب إلى الحجاز وأدّى فريضة الحجّ مع ذلك الرّجل ، وسار معَهُ إلى بلاد العراق ، وزار كربلاء ، ثمّ عزَمَ العودةَ إلى تلمسان ، وكان يحكمها في تلك الفترة الأمير الزّياني أبو حمّو موسى الأوّل ، وعندما سمع به الأمير أرسل إليه يرغِمُهُ على العمل ، ولم يكن الآبلي مستعدّا

للعمل، وفضّل العلم عليه، ففرّ إلى مدينة فاس واختفى، و قطَعَ طريق الجبال حتّى لا يُعرف له أثر، ومن فاس ذهب إلى مُرّاكُش اتّصل بالإمام العلاّمة أبي العبّاس أحمد بن البنّاء الذي لازمَهُ مدّةً من الزّمن و درسَ عليه علوما كثيرة[38].

وعندما غزا السُّلطان المريني أبو الحسن مدينة تلمسان في رمضان عام 737هـ/ أفريل 1337م، حدّثه العلاّمة أبو موسى عيسى بن الإمام عن الآبلي، وأشاد بفضلِهِ وبنبوغه في العلوم والمعارف، فاستقدمَهُ من فاس، وضمَّهُ إلى مجلس عُلَمَائِهِ فَعَمِلَ مُدرِّسًا و التفّ حوله عددٌ من طلبة العلم والعلماء[39]، وعندما عزم السّلطان أبو الحسن على غزو تونس عام 748هـ/ 1347م صحَبَهُ معهُ، مع عددٍ آخر من العلماء الأجلاّءِ كعادَتِهِ[40]، وتعرّف الآبلي على علماء تونس وكبارها، ودرّس بها، ومن طلبته هناك الفقيه أبو عبد الله بن عرفة، و عبد الرّحمن بن خلدون[41].

وبعد بقاءه في تونس بعض الوقتِ طلبهُ السُّلطان أبو عنان المريني لينظمَّ إلى مجلس علمائِهِ، كما درّس كذلك بعد عودته إلى تلمسان، ومن تلاميذه فيها عبد الرّحمن بن خلدون، وأخوه أبو زكرياء يحيى، وابن الصّباغ المكناسي، والشّريف التّلمساني، وغيرهم[42].

توفي **الآبلي** بمدينة فاس في ذي القعدة عام 757هـ/ 1356م، ودفن ما بين المدينة البيضاء و فاس، وحضر السّلطان المريني جنازتهُ وسار في موكبها[43]، وهذا دليل على أنّه كان يتمتّع باحترام الجميع[44] لقد كان الآبلي يتمتّع بشخصيّة قويّة وتقدير عظيم من تلاميذه وكان كثير الذّكاء[45].

رابعا. رأي الآبلي الذي نقله المقّري حول بنيان المدارس وكثرة المؤلفات

يذكر **المقري** أنّه سمع شيخه **الآبلي** يقول:" إنّما أفسد العلم كثرة التواليف، وإنّما أذهبه بنيان المدارس...غير أنّ في شرح ذلك طولا، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم..." [46].

ويعدّ قائل الكلام الآبلي" من أهم عُلمَاءِ عصره، وقد عُرف بكثرة نشاطه في التّعليم، وكثافة جهوده في هذا الميدان، ولم يُخلّف لنا آثارا علميّة مكتوبة، والرّأيُ الذي ذكرناه والمنقول عن المقّري، هو رأي غريب إن صحّ منه و ثَبُتَ هذا من جهة"[47]. ومن جهة أخرى قد يكون الصّواب، لأنّ **الآبلي** تأسّف من كثرة انقسام

المسلمين على أنفسهم في عهده خلال القرن الثّامن الهجري، (14م)، واختلافِ كلمتهم، ولقد ظهَرَ كُلُّ هذا في كثرة بناء المدارس وانقسامها إمّا على أساس مذهبي، أو طرقيّ، أو ما يخدُمُ السّلطان، وهذا الاختلاف أدّى إلى تشتّتهم، وتسلّط الأعداء النّصارى على كثير من بلدانهم خاصّة الأندلس، و أُثِرَ عنه في هذا الميدان قوله: " لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثَر ممّا في حقّ بني إسرائيل لأنّنا أتينا أكثر ممّا أتوا "، وهو يشير في هذا الرّأي إلى افتراق كلمة المسلمين[48].

وعهدُ **الآبلي** فيه تعدُّدٌ للملوك الحكّام، وتَغَلُّبٌ للهوى، وخفاء التّقوى وتحريف وتحريف وتبديل لكلام الله بتأويله تأويلا خاطئا، و لذلك أخذ **الآبلي** منهم موقفا[49]، ورأيُه مفيدٌ لنا في تمكيننا من الحكم على التّعليم في بلاد المغرب في ذلك العصر، خصوصا أنّه أستاذٌ حُرٌ رفض الكثير من المناصب الإداريّة، و قَبِلَ فقط بتدريس الطّلبة، ويعتبر رأيه نقدا موجّها لمساوئ التّعليم الرّسميّ آنذاك، وينبغي أن نُقِرَّ بأنّ المدارس قدّ أُسست لتخريج موظّفي الدّولةِ و أنّ الحكومة كانت تعطي الطّلاّب التّكوين الفقهي و الدّيني الذي يناسبها[50]، وقد يترتّب عن هذا عدّة مساوئ.

والعلم الذي يتكلّم عنه **الآبلي** هو القرآن الكريم والسّنّة الصّحيحة، أمّا إذهاب بناء المدارس للعلم، فقد وجدنا رأيا **لأحمد بابا التّمبكتي** السوداني يؤيّد رأي **الآبلي**، فقد اعترف بأنّه أصبح هو نفسه يتعاطى القراءة، ولا يحسن العلم، وأصبح هذا الأمر متوارثا[51].

ويسمّي العلم الذي يُعلّم في هذه المدارس، بالمذموم أو الفاسد، فحيادة المدارس عن العلم الصّحيح النّافع هي التي جعلتها تهدم العلم، بدل أن تبنيه، و للحنبلي رأي في الكثرة المفسدة، فيقول: " الـعلم ليس بكثرة الرّواية، ولا بكثرة المقال، ولكنّه نور يقذف في القلب، يفهمُ به العبد الحقّ ويميّز به بينه و بين الباطل، و يُعبِّر عن ذلك بعبارات وجيزة محصّلة ..." [52].

ومن المدارس التي عُرفت في المغرب في عهد المرينيّين، مدرسة الحلفاويّين سنة 670هـ/ 1272م، ومدرسة المخزن، ومدرسة الصّهريج، ومدرسة الوادي سنة 721هـ/ 1321م، ومدرسة العطّارين 723هـ/ 1323م، و مدرسة المصباحيّة 745هـ/ 1345م، والمدرسة العنّانيّة 755هـ/ 1355م[53]، ولقد أُنشئت مدارس

أخرى في الدّولة المرينيّة ليس فقط في فاس، بل وأيضا في مُرّاكش، وسَلآ، ومكناس، خلال القرن الرّابع عشر الميلادي، وأسّسوا مدرسة كذلك في تلمسان[54].

ولقد رأى الكثير من الشّيوخ ضرر هذه المدارس على حريّة البحث والدّراسة، لأنّها تمنعُ الطّالب من الذّهاب لطلب العلم عند أشهر الشّيوخ في العالم الإسلامي، ولأنّها تجعلهم يستقرّون في أماكنهم تحت إغراء المزايا العديدة[55]، من مسكن وراتب و جراية، و احترام لهم، و وظائف عامّة تُفتح أمامهم، و من المزايا كثرة الطّعام، و اختلاف أنواعه، و الألبسة، وقاعات الدّراسة، ومن أمثلتها أنّه من خلال وصف **للوزّان الفاسي**، المعروف بليون الإفريقي[56]، في كتابه: "وصف إفريقيا"، أنّه في فاس وحدها كانت هناك مائتا مدرسة للأطفال فقط، عبارة عن قاعات واسعة، داخلها محاط بالدّكاكين، ومجالس للتّلاميذ، والمعلّم فيها يعلّم القرآن و الكتابة، و يقيم التّلاميذ فيها سبعة أعوام، و كانت تعطى لهم المأكولات و الكسوة[57].

وإذا تحدثنا عن بنيان المدارس و عمّا يُدفعُ فيها من أموال أثناء بناءها أو بعد بناءها، فهذا يعد سببا يدفع للاستقرار، وصرف الأموال الكثيرة، و عند الآبلي هناك سبب آخر كذلك، و هو السّياسة الممارسة في التّعليم نفسها، فالأساتذة كانوا ربّما مرغمين على قصر تعليمهم على المذهب الذي يدعوا إليه السّلطان الذي كان يدفع رواتبهم[58]، و ربّما هؤلاء الأساتذة هم نفسهم من أتباع مذهب معيّن، و هدفهم هو القيام بنشره.

و إذا عدنا إلى أسباب إنشاء المدارس، فإنّنا نجدها رسميا تُؤيّد المذهب الذي يتّبعه السّلطان، أو الأمير الحاكم، ناهيك عن دور الحركة الصّوفيّة التي ظهرت و الكثير من الصّوفيّة كان مشتغلا بالتّدريس، و منهم الصّوفي المعروف بالدّهماني، و **ابن أخيه يعقوب بن خليفة** المتوفّى سنة 669هـ/ 1270م، و كانا يدرّسان في إحدى المدارس، التي تُشر إليها المصادر بوضوح[59]، و لقد أسّس شيخ صوفي مدرسة، ويُدعى الشّيخ **بأبي هلال** وشُرع من خلال هذه المدرسة إلى الدّعوة و العمل للصّوفيّة، و أشرف المرينيّون على مثل هذه المدارس في فاس خاصّة[60].

إنّ المدرسة مانعة لطلب العلم الحقيقي لما فيها من سلبيّات فهي تحجز الطّالب فيها ليتنعّم بنعمائها فينشغل بالمكان عن المطلوب و المراد، و هو العلم، و هذا هو ما دفع الآبلي إلى قوله بإفسادها للعلم،" ناهيك عمّا ينتج عنها و تقصّه المختصرات، و

التي هي نتيجة محتّمة للأسلوب التّعليمي في ذلك العهد ، فقد انقطع فيه تخريج الأحاديث وانصرف عن تصحيح أمّهات الكُتب ، وضبطها بالرّواية عن مصنّفيها كما ذكر ابن خلدون إلى جانب جمود الحركة الفكريّة"[61] .

ولقد بلغ العلماء والطّلبة القمّة في كتابة الشّروح و الحواشي الفقهيّة ، و منهم العيدوسي ، و ابن الصّبّاغ ، و صرف العلماء في هذا العصر كلّ ما لديهم من همّةٍ ونشاط إلى التّلخيصات ، و الاختصارات إذ وفّقوا في بعضها ولم يوفّقوا في البعض الآخر ، و من أهمّ المحاولات ما كتبه **ابن أجروم** في مختصره الصّغير لدراسة النّحو العربي[62] .

وكثير من العلماء صنّفوا كُتُبا في الفقه و الكلام ، و كَثُر عدد مؤلّفات الفقه ، – و هذا يبرز رأي **الآبلي** عن كثرة التّآليف– ، و كان الفقهاء يُصنّفون مُتُونًا يحفظها الطّالب عن ظهر قلب و مختصرات ، و موجزات ، فيها من الإيجاز بقدرٍ ما فيها من الغموض[63] .

وفي ميدان الفقه وحده كثرت المتون ، و أشهرها : مختصر **خليل بن إسحاق المصري** ، المتوفّى سنة 776هـ/ 1374م[64] ، وهو "المدوّنة" ، كتبت عليه عشرات الشّروح والحواشي[65] .

وقد قال المقّري أنّ النّاس استباحوا النّقل من المختصرات الغريبةِ أصحابها والتي نسبوا فيها إلى الكتب الأصليّة ، و تركوا الرّواية فكثُر التّصحيف و انقطعت سلسلة الاتّصال ، فصارت الفتوى تُنْقل من كُتب لا يدري ما زيد فيها ، و ما نقُص منها لعدم تصحيحها ، واقتصروا على حفظ ما قلّ لفظه و نزُر حظّه ، و لم يهتمُّوا بمعرفة الضّعيف من الصّحيح[66] ، هذا إلى جانب فقر الثّقافة و التّحصيل لدى شيوخ المذهب وافتقارهم للرّوح النّقديّة[67] .

ولا نعدم وجود أي علم في المغرب ، فقد نبغ المغاربة في علم القراءات وأتقنوه ، ويقول عبد العزيز اللاهواني ، بأنّ هذا هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامّة[68] .

خاتمة

وأخيرا نستنتج بأنّ **الآبلي** بنى رأيه بناء على واقع معاش، وكثرة التّآليف أنقصت فعلا من القيمة العلميّة للكتاب بصفة خاصّة، وقيمة المدارس و قيمة العلم ككل، وإلى جانب حيادة المدارس عن هدفها الأصلي، وهو العلم فهي عوض أن تبنيه هدّمته، وصدق من قال : " **إنَّ مِنَ ٱلعِلمِ لَجَهْلاً** "[69]، وصدق القائل: " **ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ إِيمَانًا دَائِمًا، فَرُبَّ إِيمَانٍ غَيْرِ دَائِمٍ، وَ أَسأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، فَرُبَّ عِلمٍ غَيْرِ نَافِعٍ**" [70].

ومن الاستنتاجات أيضا :

-نجد أنَّ **الآبلي** كان كثير الذكاء لذلك يعرف قيمة الشيوخ والرحلات، وكان يرى بعين الحكمة، كيف أنَّ المدرسة إذا كانت تحت رعاية المذهب تفسد طريق العلم وتحصيله.

– ونجد أيضا أنَّ تأثر المقري هو صواب، وهو تأثر لفكرة منطقية تهم جميع من يُحكّم العقل والشرع أيضا، فعقليا ومنطقيا التعرُّف على العلم هو حرية في حد ذاته، ويُؤخذ من منبعه الأصلي، وليس من مكان موجه قصدا حسب سياسة معينة لمذهب معين.

– سلبية المدرسة ليست حكما عاما فالمقصود المدارس المذهبية خاصة المتعصبة.

المدرسة الوقفية خاصة ينبغي أن تكون وقفا لله، فيكون للطالب حرية البحث والتعلم، ومنع الحكام للطلبة من الرحلة، ليس إلا إلجاما للحق، وعزل للعقل، خوفا من أن يكتشف الطالب الحقيقة فيعترض، فيشكل ذلك بلبلة داخلية، ومن كل هذا نجد فعلا أنَّ المدرسة هي فعلا أصبحت موجهة غالقة للعلم لا مركزا للعلم، ناهيك أنَّها تعلم الطالب الكسل والعجز عن البحث.

هوامش

1) رابح بونار، **المغرب العربي تاريخه و ثقافته**، ط3، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2000م، ص 36.

2) الأربطة جمع كلمة رباط ، مشتقة من رَبَطَ ، والمقصود ربط الخيل، والرباط والمُرَابَطَةُ هي ملازمة ثغر العدو، ومكان للجند. أنظر :- محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، ج7، ط1، دار صادر بيروت، لبنان، دت، ص 302.

3) هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي ، توفي عام 808هـ/1406م، أصل عائلته أندلسية، درس في الزيتونة بتونس، تأثر بأفكار الشيخ الآبلي، وأخذ عن علماء المغرب، من كتبه المقدمة وكتاب العبر .أنظر :- عبد القادر بوباية، **المؤنس في مصادر من تاريخ المغرب والأندلس**، ط1، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ، 2011م، ص 209.

4) أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس،ج5، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م، ص ص 275، 276.

5) المدرسة لم تعرف بهذا الاسم في المغرب، و كذا في الأندلس، إلاّ في أواخر عصر الموحّدين، فقد ظهرت في المشرق بنحو ثلاثة قرون، فقد كانت المدرسة البيهقيّة بنيسابور أوّل من حمل اسم المدرسة قبل نهاية القرن الرّابع الهجري، ثمّ أسّس نظام المُلك الطّوسي، وزير السّلطان ملك شاه السّلجوقي (465- 485هـ) المدرسة النّظاميّة ببغداد والمدرسة النّظاميّة بنيسابور، و لمّا حكم المرينيّون المغرب أنشؤوا عدّة مدارس، من أهمّ أغراضها مقاومة ما تبقّى من مبادئ الموحّدين و انحلال مذهبهم. أنظر : عبد الله علاّم، **الدّولة الموحّديّة بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، دار المعارف، مصر، 1971م، ص 292.

6) مدينة كانت تسمى أيضا بالمحمدية اختطها محمد بن المهدي الملقب بالقائم في أيام أبيه، وذلك أن أباه أرسله هناك، وقد كانت لقبيلة بربرية اسمها بني كملان . أنظر :- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج5، دار الفكر، بيروت، لبنان ،دت، ص ص65،64.

7) تلمسان أو تنمسان ،كانت عبارة عن مدينتين متجاورتين مسورتين إحداهما قديمة والثانية حديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب، اسمها تافرزت، كان يسكنها الجند وأصحاب السلطان والناس أيضا، كانت مدينة هامة كالقاهرة والفسطاط في مصر .أنظر الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 44.

8) محمّد بن رمضان شاوش، **باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيّان**، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1995م، ص 522.

9) عمّ المقّري، وُلِدَ بتلمسان عام 928هـ/ 1522م، كان عالما و قاضيا، توفّي حوالي 1020هـ أو قبلها بقليل.

10) يحي بوعزيز ، **أعلام الفكر و الثّقافة في الجزائر المحروسة** ، ج2 ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1995م ، ص 167 .

11) فاس هي مدينة كبيرة ومشهورة في بلاد البربر كانت تسمى بحاضرة البحر ، كانت فيها عيون ، ومساكن على الجبل ، وكانت عبارة عن مدينتين مسورتين وهما عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ، فيها بساتين ، ومساكن كثيرة ، وثلا ثمائة رحى ، ونحو عشرين حماما . أنظر :- الحموي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص230 .

12) كانت مدينة مراكش تعد أعظم مدن المغرب ، أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين والملقب بأمير المسلمين . أنظر :-الحموي ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 94 .

13) يحي بوعزيز ، المرجع السّابق ، ص 167 .

14) من مؤلفات أحمد بابا التنبكتي كتاب كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، وهو اختصار لكتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ويعتبر كتاب مخهم في تاريخ تطور المذهب المالكي في المغرب الإسلامي وأبرز علمائه . أنظر :- عبد القادر بوباية ، المرجع السابق ، ص 281 .

15) المقّري ، المصدر السّابق ، ص 168 .

16) يحي بوعزيز ، المرجع السّابق ، ص 168 .

17) دِمشق بلدة مشهورة في قصبة الشام ، يقال أنها كانت جنة الأرض لحسن عمارتها ، وجمالها ، وكثرة فواكهها ونزاهة رقعتها ، وكثرة مياهها ، سميت بدمشق لأنهم دمشقوا في بنائها .أنظر :-الحموي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 463 .

18) القاهرة مدينة عُظمى بجانب الفسطاط ، بها دار الملك ومساكن الجند ، أول من أحدثها جوهر غلام المعز أبي تميم معد ، وكان سبب استحداثها أن المعز أنفذه للاستيلاء على الديار المصرية .أنظر :- الحموي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 301 .

19) الحجاز في شبه الجزيرة العربية ، سميت كذلك لأن فيها جبالا حاجزة تمتد بين الغور وهو غور تهامة ، ونجد .أنظر :- الحموي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 218 .

20) يحي بوعزيز ، المرجع السّابق ، ص 177 .

21) الأندلس كلمة عرفت بعد الإسلام فقط ، إذ لم تعرفها العرب قديما ، وهي عبارة عن جزيرة كبيرة ، فيها المياه الجارية ، و الشجر والثمر والرخص والسعة . أنظر :- الحموي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 262 .

22) المرجع نفسه ، ص 178 .

23) تحدّث المقّري في مقدّمة كتابه نفح الطّيب ، عن الرّحلة التي سبقت تأليفه لهذا الكتاب .

24) يحي بوعزيز ، المرجع السّابق ، ص 175 .

25) نفسه .

26) نفسه، ص 176.

27) ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث التّاريخي و الجغرافي للمغرب الإسلامي، تراجم مؤرّخين و رحّالة وجغرافيّين**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999م، ص 333.

28) يحي بوعزيز، المرجع السّابق، ص 177.

29) علي أحمد، **الأندلسيّون و المغاربة**، ط1، دار طلاس، دمشق،سوريا، 1989م، ص 100.

30) هي مدريد حاليا مؤسسها الأمير محمد الأول بن عبد الرحمان الثاني سنة 855م، وسقطت بيد النصارى سنة 1083م، واسمها مكون من مجرى ويط إحداهما عربي والثاني لاتيني ، والمعنى المدينة كثيرة المجاري. أنظر :-كاظم شمهود طاهر، **العمارة الإسلامية في أسبانيا مجريط**، ط1، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ،2005 م، ص ص 22، 34.

31) يحي بوعزيز، المرجع السّابق، ص 26.

32) المقّري، المصدر السّابق، ص 244.

33) أبو عمران الشّيخ و ناصر الدّين سعيدوني، **معجم مشاهير المغاربة**، جامعة الجزائر، الجزائر ، 1995م، ص 13.

34) كربلاء هي مدينة عند الكوفة قتل بها الحسين بن علي رضي الله عنهما، سميت باسم كربلاء لأنها أرض رخوة. أنزر :-الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 445.

35) العراق من كلمة عرقة وهو نوع من أنواع الطير، ويقال أنها جمع عرق، ولاسمها معان كثيرة، تقع نهري دجلة والفرات .أنظر :- الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 93.

36) تونس مدينة كبيرة كانت تعرف بتونس الغرب بإفريقية على ساحل بحر الروم عمرت بالقرب من مدينة قديمة كانت تسمى قرطاجة، كان اسم تونس في القديم ترشيش .أنظر :-الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 60.

37) هناك عدة مدن تسمى بالإسكندرية في المشرق بناهم الإسكندر عُدِّدت بثلاث عشرة إسكندرية، أما إسكندرية مصر فهي مدينة عظيمة . أنظر :- الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 183.

38) يحي بوعزيز، المرجع السّابق، ص 29.

39) نفسه، ص 29.

40) يحيى بن خلدون، المصدر السّابق، ص 13.

41) يحي بوعزيز، المرجع السّابق، ص 30.

42) نفسه، ص 31.

43) يحي بن خلدون ،المصدر السابق ، ص 32 .
44) أبو عمران الشّيخ ، المرجع السّابق ، ص 13 .
45) يحيى بن خلدون ، المصدر السّابق ، ص 18 .
46) المقري ، المصدر السابق ، ج5 ، ص275 .
47) يحي بوعزيز ، المرجع السّابق ، ص 31 .
48) نفسه .
49) نفسه .
50) ألفريد بيل ، **الفرق الإسلاميّة في الشّمال الإفريقي من الفتح حتّى اليوم** ، ترجمة عبد الرّحمن بدوي ، ط3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1987م ، ص 360 .
51) الحسن السّائح ، **الحضارة الإسلاميّة في المغرب** ، ط2 ، الدّار البيضاء ، المغرب ، دار الثّقافة ، 1986م ، ص 257 .
52) زين الدّين بن رجب الحنبلي ، **فضل علم السّلف على الخلف** ، تحقيق علي حسن علي عبد الحميد ، دار الشّهاب ، باتنة ، الجزائر ، 1987م ، ص 37 .
53) عبد الهادي التّازي ، **جامع القرويّين ، المسجد و الجامع بمدينة فاس** ، ج2 ، ط1 ، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت ،لبنان ، 1973م ، ص 365 .
54) ألفريد بيل ، المرجع السّابق ، ص 352 .
55) المرجع نفسه ، ص 358 .
56) كان حيّا حتّى عام 964هـ/ 1557م .
57) الحسن السّائح ، المرجع السّابق ، ص 262 .
58) ألفريد بيل ، المرجع السّابق ، ص 359 .
59) جرجي زيدان ، **تاريخ التّمدّن الإسلامي** ، مج2 ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، 1967م ، ص 222 .
60) روبار برنشفيك ، **تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15م** ، ج1 ، ترجمة حمّادي السّاحلي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1988م ، ص 346 .
61) السّائح ، المرجع السّابق ، ص 259 .
62) نفسه .
63) بيل ، المرجع السّابق ، ص 361 .
64) السّائح ، المرجع السّابق ، ص 361 .
65) نفسه ، ص 259 .
66) السّائح ، المرجع السّابق ، ص 362 .
67) نفسه ، ص 363 .

68) نفسه .

69) ابن رجب الحنبلي ، قال فيه حديث مرفوع ، المصدر السّابق ، ص 16 .

70) نفسه ، ص 15 .